من "عثمان الغازي" إلى محمد الفاتح

تنتسب أسرة بني عثمان التي أسست الدولة العثمانية إلى عشيرة "قَايِي (*Kayı*)" التي تنتمي بدورها لأتراك "الأُوغُوزْ (*Oğuz*)"، ولقد هاجرت عشيرة "قايي" من آسيا الوسطى إلى شبه جزيرة الأناضول تحت قيادة "أَرْطُغْرُولْ (*Ertuğrul*) الغازي" في عهد سلطان سلاجقة الروم "علاء الدين كيقباد الأول" (١٢٢٠-١٢٣٧م)، ثم سمح لهم السلطان بالاستيطان في منطقة "بيتينيا (*Bitinya*)" الواقعة شمال غربي آسيا الصغرى، أي بالقرب من مدينتي "سُوغُوتْ (*Söğüt*)" و"دُومَانِيجْ (*Domaniç*)"، في مقابل الخدمات التي قدموها لدولته، وبهزيمة جيش سلاجقة الروم على يد المغول الإلخاني في معركة "كُوسَه دَاغْ (*Kösedağ*)" عام (١٢٤٣م)، وسيطرةِ المغول الإلخانيّين على الأناضول واتّباعهم أساليب عنيفة مع الشعب؛ انهارت النظُمُ الاقتصاديّة والاجتماعيّة بالمنطقة، وسيطرت حالةٌ من الفوضى العارمة على مفاصِل الحياة في أراضي شبه جزيرة الأناضول، وبدأ التركمان

في هذه السنوات المتوتّرة بالهرب من اضطهاد المغول الإلخانيّين والهجرة والاستقرار في مناطق غربي الأناضول، وبادر حكّام التركمان في التحرّك بحريّة واستقلاليّة بعدما سيطروا على سواحل بحرَي "إيجَة (*Ege*)" و"مَرْمَرَة (*Marmara*)"، وذلك عقب فقدان سلاجقة الروم نفوذهم في الأناضول، وبعد وفاة "أَرْطُغْرُولْ الغازي"، اُختير "عثمان بك"[1] لخلافته في قيادة عشيرة "قايي" التي استقرّ بها المقام في منطقة "بيتينيا"، وعمد "عثمان بك" إلى استغلال الأزمات التي تعيشها إمبراطوريّة "روما" الشرقيّة استغلالًا جيّدًا، وتبنّى سياسةَ "الغزو والجهاد" ضدّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة في الغرب بدلًا من الدخول في صراعٍ مع الإمارات التركمانيّة في الأناضول.

لقد انتقلت "أيديولوجية الجهاد والنضال في سبيل إعلاء كلمة الله" إلى العثمانيّين، بصفتهم ورثة الحضارة الإسلامية وتقاليدها السياسيّة، وظلّت هذه الأيديولوجيّة لديهم يطبّقونها في ظلّ ظروفٍ مختلِفةٍ إلى أن انهارت دولتُهم.

وبدأَ -بخطًى صغيرةٍ ولكنّها ثابتةٌ- بالاستيلاءِ على المُدُنِ التي تخضعُ لحُكْمِ الولاة التابعين للبيزنطيّين واحدةً تلوَ الأخرى، وكانت أولى الأماكن التي فتحَها مدن "قَارَاجَه حِصَارْ (*Karacahisar*)" و"يَارْ حِصَارْ (*Yarhisar*)" و"بِيلَه جِيكْ (*Bilecik*)" و"إِينَه جُولْ (*İnegöl*)".

ويصِفُ المؤرّخ البيزنطيُّ المعاصِر "باشيميريس (*Pachymeres*)" عثمان بك بأنه "كان أكثرَ القادةِ العسكريّين الذين هاجموا أراضي الإمبراطوريّة

(١) لمزيد من المعلومات انظر: كتاب "حلما كان واقعا صار (قصة مؤسس الدولة العثمانية)" دار النيل - ٢٠١٤م، القاهرة.

البيزنطيّة شجاعةً وحيويةً"، وقد دعمت بعضُ المجموعات المؤثّرة في منطقة غرب الأناضول سياسةَ "الغزو والجهاد" التي انتهجها "عثمان بك" في التعامل مع البيزنطيّين، وأُعجب الآخيون[٢] والغزاة وبعضٌ من رجال دولة سلاجقة الروم بالسياسة التي تبنّاها "عثمان بك"، وتجمّعوا تحت إدارته.

وأخذَ نفوذ "عثمان بك" في الزيادة بين الإمارات التركمانيّة مع تسلّمه "قيادة الغزوات" في المناطق الحدوديّة ضدّ الدولة البيزنطية، وبدأ بالتحرّك وكأنّه مستقلّ بعد سكّ العملة باسمه، ومن ثَمّ واصلَ سياسة التوسُّع في حوضِ منطقة "سَقَارْيَا (*Sakarya*)"، وتُشير السجلّات التاريخيّة إلى أنّ أوّلَ انتصارٍ حقّقه "عثمان بك" ضدّ الدولة البيزنطيّة -التي شعرت بالضيق والحرج من هذه الوضعيّة- كان في معركة "قويون حصار" التي وقعت عام (١٣٠٢م)، ويروي المؤرخ "باشيميريس" هذه المرّة أنّ الغزاةَ الأتراك تقدّموا حتى وصلوا إلى مضيق البوسفور دون أيّ مقاومةٍ تُذكر من جانب البيزنطيّين، وكان الآخيون والفقهاء هم الداعم المعنوي لـ"عثمان الغازي" والمنظِّم لحياته القانونيّة والاجتماعيّة، فكان يتشاوَرُ مع الفقهاء حول القواعد الدينية المنظِّمة للحياة في المناطق التي يبسط نفوذه عليها، كما كان الفقهاء يقدّمون المعلومات والتوجيهات المعنويّة للمجتمع ويقومون بخدمات الإمامة والخطابة في المُدُنِ والقرى لدرايتهم بالشريعة الإسلاميّة وعقيدة أهل السنّة والجماعة.

(٢) "الآخية (*Ahilik*)" -مفردها آخي- هي مؤسسة اجتماعية نشأت في الأناضول في القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي، تركزت أعمالها في القيام بخدمة الناس وتعليمهم حبّ مساعدة المحتاجين والمساكين. (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض- (١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م)، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ص.١٣).

نجح "أُورْخَانْ (*Orhan*) بن عثمان الغازي" في فتح مدينة "بُورْصَا (*Bursa*)" التي تُعتبر أكبر مدن البيزنطيّين في الأناضول عام (١٣٢٦م)، ومن ثَمَّ اتّخذها عاصمةً لدولته، وكان الإمبراطور البيزنطي "أندرونيكوس (*Andronikos*) الثالث" منزعجًا من فتوحات الأتراك في شبه جزيرة "قُوجَه أَلِي (*Kocaeli*)" الواقعة شمال غربيّ الأناضول، وحصارهم لمدينتي "إِزْنِيكْ (*İznik*)" و"إِزْمِيتْ (*İzmit*)"، وتصوَّر أنه يستطيعُ استعادةَ كلّ المدن التي انُتزعت منه حتى ذلك التاريخ، إلا أن هذا الإمبراطور أنقذ حياته بشقِّ الأنفس في معركة "بَاليكَانُونْ (*Palekanon*)" عام (١٣٢٩م)، وكانت هذه أولى المعارك التي انتصرَ فيها الأتراك ضدّ جيش الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وعقِب هذا النصر؛ سيطرَ "أُورْخَانْ الغازي" على "إزنيك" و"إزميت"، وبهذا اكتمل فتحُ شبه جزيرة "قُوجَه أَلِي"، وبحلول عام (١٣٣٥م) ضمّ "أُورْخَانْ الغازي" أراضي "إمارة بني قَرَاصِي (*Karasi*)"، لتدخلَ جميع السواحل الجنوبية لبحر مرمرة ضمن منطقة نفوذ العثمانيّين، ومن ناحيةٍ أخرى؛ عبر "سليمان باشا بن أُورْخَانْ الغازي" بجنوده من مضيق "الدردنيل" إلى منطقة الروملي، واستولى على قلعة "جِيمْبَه (*Çimpe*)" التي تُعتبر أولى المناطق التي سيطر عليها الأتراك في البلقان (١٣٥٣م)، وبهذه الطريقة تأسّست قاعدةٌ للأتراك العثمانيّين لمتابعة غزواتهم في شبه جزيرة البلقان، لتبدأ فتوحاتهم في تلك المنطقة، كما استطاع "سليمان باشا" الخروج في غزوات وفتح بعض المدن البيزنطيّة في منطقة "تراقيا" الشرقية خلال فترةٍ قصيرةٍ.

وتمكّن العثمانيّون من إحراز تقدُّم كبيرٍ في منطقة البلقان في عهد "مراد الأول بن أُورْخَانْ الغازي" (١٣٦٢-١٣٨٩م)، وبدأ أعداءُ العثمانيّين

في البلقان يتزايدون تزامنًا مع سيطرة العثمانيين على جميع المدن الواقعة في تراقيا الشرقية، بما في ذلك "أَدِرْنَه (*Edirne*)"، وقد أحسّت دول البلقان بالقلق إزاء فتح العثمانيين لمدينتي "أَدِرْنَه" و"فِيلِيبَه (*Filibe*)" وتقدّمهم في أراضي البلقان، فشكّلت أوّل جيشٍ صليبيٍّ تألّف من الجنود البلغار والصرب والرومان والبوسنيين بقيادة مجريّة، ومن ثمّ شنوا به هجومًا على الأراضي العثمانية، وقد ألحقت قوّاتٌ استطلاعيةٌ عثمانيةٌ أرسلها أمير الروملي "لَالَا شَاهِينْ بَاشَا (*Lala Şahin Paşa*)" أوّلَ هزيمةٍ بالقوّات الصليبيّة في معركة "صِرْبْ صِنْدِيغِي (*Sırpsındığı*)" عام (١٣٦٤م) بفضل هجومٍ مفاجئٍ خطّط له القائد "حَاجِي إِلْبَيْ (*Hacı İlbey*)"، وغرق معظم الجنود الصليبيّين الذين حاولوا الهرب في نهر "مَرِيجْ (*Meriç*)".

وعمد العثمانيون في تلك الأثناء إلى نقل عاصمة دولتهم من "بورصا" إلى "أَدِرْنَه" لرغبتهم في مواصلة فتوحاتهم وتنظيمها بشكل أفضل، وبدؤوا بتوطين التركمان الذين جلبوهم من الأناضول في المناطق التي فتحوها في البلقان بغية أسلَمَة المنطقة والاستقرار بها، وارتضى ملوك البلغار والصرب بدفع الضرائب إلى العثمانيين بعد هزيمتهم في معركة "جِيرْمَنْ (*Çirmen*)" عام (١٣٧١م)، وحاول حكّام البلقان مرّةً ثانيةً وقف التقدُّم المفاجئ والسريع للقوّات العثمانية في المنطقة وطردهم منها، فحشدوا جيشًا صليبيًّا جديدًا، ولكنهم تعرضوا للهزيمة مرّةً أخرى من العثمانيين في وادي "كوسوفو (*Kosova*)"، وبينما كان السلطان "مراد الأول" يتفقّد ميدان المعركة بعد انتهائها، إذ عاجله جنديٌّ صربيٌّ مصاب بطعنة خنجرٍ أردته قتيلًا وذلك في عام (١٣٨٩م)، وقد دخل "مراد الأول" التاريخ كأول

سلطانٍ عثمانيٍّ يستشهد في ميدان المعركة، وأُطلق على هذا السلطان لقب "الحاكم الغازي"، وفي عهده تحوّلت منطقة الروملي إلى وطنٍ ثانٍ للأتراك، وتفوّق العثمانيّون على نظرائهم في الأناضول، وبهذه الطريقة تكونُ الدولة العثمانيّة قد وضعت أولى لَبِناتِها لتكوين دولةٍ عظيمةٍ يهابُها الشرق والغرب.

ولما استشهدَ السلطان "مراد الأول"، خلفَه على العرش ابنه "بايزيد الأول" الذي واصلَ فتوحات أبيه في البلقان، وبحلولِ عام (١٣٩٣م) صارت بلغاريا بالكامل ولايةً عثمانيّة، ورسّخَت الدولة العثمانيّة سيطرتَها في المنطقة الواقعةِ جنوب نهرِ "الدانوب"، وعبرت القوّات العثمانيّة في ذلك الوقت شمال نهر الدانوب ووصلت للمرّة الأولى إلى "الأَفْلَاق والبُغْدَانْ" (جزء من رومانيا الحاليّة)، وامتدّت حملات العثمانيّين حتى شبه جزيرة "بيلوبونيز"، وبالرغم من حصار السلطان "بايزيد الأول" للقسطنطينية (إسطنبول) أربع مرّات فقد نجحَ البيزنطيّون في تخليص أنفسِهم من هذا الحصار في كلّ مرّةٍ بفضل الحظّ الذي وقف بجانبهم والمؤامرات التي حاكوها، فعلى سبيل المثال؛ حاصرَت القوّات العثمانيّة عاصمة البيزنطيّين عام (١٣٩٥م)، إلا أنّ القوّات الصليبيّة بزعامة البابا قدّمت الدعم للبيزنطيّين، وتجمّع جيشٌ جرّارٌ كان هو الأكبر بين الجيوش الصليبيّة إلى ذلك التاريخ بمشاركة قوّاتٍ من جميع دول أوروبا، إلا أن هذا الجيش مُني بهزيمةٍ ساحقةٍ من القوات العثمانية في وادي "نِغْبُولُو (*Niğbolu*)" عام (١٣٩٦م)، وكانت هزيمةُ القوّات الصليبيّة ثقيلةً للغاية لدرجة أنه توجّب عليهم الانتظار لمدة أربعةٍ وأربعين عامًا كاملة حتى يتثنّى لهم الخروج في حملةٍ عسكريّة جديدةٍ، ومع هذا النصر المؤزّر

للعثمانيّين اضطرّت جميعُ دول البلقان وأوروبّا للاعتراف بالسيادةِ العثمانيّة على كافّة الأراضي الواقعة جنوب نهر الدانوب، ومن ناحية أخرى؛ واصلت الدولة العثمانيّة عمليات توطين بعض الأناضوليّين في منطقة البلقان كما تابعت عملية نشر الإسلام على نطاقٍ واسعٍ في منطقة الروملي، مثلما قام السلاجقة بأسلَمَةِ شبهِ جزيرةِ الأناضول وتحويلِها إلى وطنٍ لهم، ثمّ عمد العثمانيّون أيضًا إلى إدخال الثقافة الإسلامية إلى البلقان، وتحويلها إلى وطنٍ لهم.

وبينما كان السلطان "بايزيد الأوّل" يواصل فتوحاته في البلقان، ألحقَ أراضي الإمارات التركمانيّة في الأناضول إلى دولته، ووسّع مناطقَ نفوذِهِ حتى نهر الفِرَاتْ، ما حدا به ليُصبِحَ أهمّ العناصر السياسيّة الفاعلة في المنطقة بأسرها إلا أن "تِيمُورْ لَنْك" كان قد أسّس دولةً قويّةً في آسيا، وبدأَ يُدرك أنّ فتوحات العثمانيّين في الشرق تمثّل تهديدًا بالنسبةِ له، وهو الأمر الذي حتّم نشوبَ حربٍ بين هاتين الدولتين التركيّتين المسلمتَين، وقد انتصرَ "تيمور لنك" في المعركةِ العنيفة التي خاضَها ضدّ العثمانيّين في وادي "جُوبُوكْ (*Çubuk*)" في أنقره عام (١٤٠٢م)، وكانت هذه الهزيمة موجعةً للعثمانيّين، ذلك لأن القرارات الجذريّة التي اتّخذها "تيمور لنك" دفعت العثمانيّين إلى السقوط والاضمحلال، فلم يكن يرغبُ في أن يخلّف دولةً قويّةً غيره وهو عائدٌ إلى "سمرقند" مقرّ حكمه، فكانت سياستُه تجاهَ العثمانيّين في الغرب هي تقسيمُ دولتهم إلى دُويلاتٍ صغيرةٍ وبسطُ نفوذه عليها، وبدأ "تيمور لنك" في إعادة تأسيسِ جميعِ الإمارات التي كان العثمانيّون ضمّوها إلى أراضيهم، واعترفَ باستقلالِ أربعةٍ من

أشـقّاء السـلطان "بايزيـد الأول"، وكأنّه مهّد لنشـوب حـربٍ أهليّةٍ داخل الدولـة العثمانيّـة، واسـتمرّ النزاع على عرشِ الدولـة العثمانيّة بين الإخوة الأربعة "سـليمان" و"موسـى" و"عيسـى" و"محمد" بعد "حرب أَنْقَرَه" عام (١٤٠٢م) لمـدة أحد عشـر عامًا، وانتصـر أصغرُ الأشـقّاء "محمد جَلَبِي" في هذا الصراع على إخوته الثلاثة الآخرين، وقد حظي السـلطان "محمد جَلَبِـي" باحترامٍ وتبجيلٍ كبيرَين من المؤرّخين العثمانيّين لنجاحه في إنقاذِ الدولة من الانقسام، كما اعتبروه "المؤسّس الثاني" للدولة العثمانية.

لقد أجهز "محمد شلَبِي"، الذي عُرف بـ"محمد الأول"، على الصراعات الناشـبة بين إخوته عام (١٤١٣م)، وجلـسَ على عرشِ الدولة خلفًا لأبيه، وشـرع فـي العمل الدؤوب من أجل اسـتعادةِ الأراضي التـي فقدَها والدُه في الأناضول والروملي، وترسيخِ دعائم وحدَةِ دولَته التي تشتّتت، وإعادةِ إقامة سلطة الدولة بعدما أصابها الضعف والوهن، واضطرّ في تلك الأثناء لبذْلِ جهودٍ من أجل وأْدِ سلسـلةٍ من حركات التمرّد والعصيان الداخليّة، وقد خَسِـرَ الأسـطول العثمانـيّ المتواضـع تحت قيادة "جَالِـي بَكْ" أولى معاركه البحريّة ضدّ أسـطول البندقية عام (١٤١٦م) وبدأ السـلطان محمد الأول السـيطرةَ علـى المنطقـة الواقعـة جنوب نهـر الدانوب مـرّةً أخرى، وأرسـل قوّاته للمرّة الأولى منذ فترةٍ طويلة إلى ما وراء ذلك النهر، إلا أنّ القَدَرَ لم يمهله كثيرًا، فتوفّي هذا السلطان الداهية ذو الحيويّة والنشاط عام (١٤٢١م) عن عمر ناهزَ الثانيةَ والثلاثين عامًا، واحتفظ لنفسه بمكانةٍ كبيرةٍ ومتميّزةٍ في التاريخ العثمانيّ، فالدولة العثمانية نجت من الهلاك والاندثار بفضله بعد الله ﷻ، وتمكّن من توحيد الدولة من جديد ومواصلة غزواتها وفتوحاتِها التي توقفت فترة من الزمن.

وبصعودِ السلطان "مراد الثاني" إلى عرش الدولة العثمانيّة، ثار عليه الأمراء الذين حرّضتهم الإمبراطوريّة البيزنطيّة، كما تمرّد حكّام إمارات الأناضول، وواصل السلطان فعاليّات توسيعِ دولتِه في الأناضول بعدما رسّخ السلامَ الداخليَّ في دولته بعد صراعاتٍ ونزاعات دامت طويلًا، وانضوت معظم الإمارات في الأناضول مرّةً أخرى تحت راية الدولة العثمانيّة، وشعر حكّام البندقيّة بالقلق والخوفِ إزاءَ تقدُّم العثمانيّين في البلقان من "مقدونيا" إلى البحر "الأدرياتيكي" وسواحل بحر "إيجَه"، وأحسّوا أن هذا التقدُّم يضرّ بمصالحهم، كما لم تسلم شبه جزيرة "بيلوبونيز" من تهديد العثمانيين، وأفضت هذه التطوّرات في نهاية المطاف إلى وضع حكّام البندقيّة في مواجهةٍ لا مفرّ منها مع الدولة العثمانيّة.

مدينة سراييفو

(عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك)

نـرى أن السـلطان "مـراد الثاني" كثّف تواجـدَه وفعّالياتـه في أراضي البلقان اعتبارًا من عام (١٤٣٠م)، وهزمت القوّات العثمانية جيشًـا صليبيًّا متشـكّلًا من قوات صربيّة وأَفْلَاقية (رومانية) وبوسنيّة بقيادةٍ مجريّة، وبعد ذلـك؛ نجـح السـلطان فـي قيادة هجـومٍ عسـكريٍّ تمكّن فيه من إسـقاطِ قلعة "سـيميدروف"، وقضى على مملكـةِ الصرب عام (١٤٣٩م)، وفرضَ الخـراجَ على إمارات "البُوسْـنَة" و"الهَرْسَـكْ"، لكن القـوّات العثمانيّة لم تستطـع الاستيلاء على قلعة "بلجراد" التي كانت محصّنةً ومحكمةً للغاية، وبعـد الهزيمـة التـي تلقّاها العثمانيّـون عند قلعـة "بلجراد"، سـارع مَلك المجر "لاديسلاس (*Ladislas*)" وحاكم إقليم "أراد" "يانوش هونيادي (*Jan Hunyad*)" إلـى شـنّ هجومٍ ضدَّ الأتـراك، وطردوهم من "سـيميدروف"، وأوقعـوا قائـد الهجمـات العثمانية الشـهير "مزيد بك" في الفـخّ، ثمّ عبر نهـر الدانـوب جيشٌ صليبيٌّ احتشـدَ بتحريـضٍ من البيزنطيّين وشـارك به ملـك المجر وطاغية الصرب وأمير "أَفْـلَاق"، ثم دخل الأراضي العثمانية واسـتطاع إلحاقَ هزيمةٍ بالوحدات العثمانية الاستطلاعية عند وادي "نِيشْ (*Niş*)" عام (١٤٤٣م)، ولـم يتمكّن السـلطان "مراد الثاني" من إيقافِ تقدُّمِ الجيش الصليبيّ، وكان أسوأ ما في الأمر أن حاكم ألبانيا "إسكندر" انفصلَ عـن الجيش العثماني وأعلن تمرُّدَه، كما اسـتغلّ "بنـو قَرَمَان" هذه الورطة التـي وقـع بهـا العثمانيون، فأغـاروا عليهم مـن الأناضول، مـا زاد الأمر وخامةً وسـوءًا، ولِحُسْـنِ الحظِّ اضطـرَّ الجيش الصليبيُّ للانسـحاب مع دخـول فصل الشـتاء، وتأجّلـت المعارك بيـن الطرفين لفترة مـن الوقت، وخلال هذه الفترة من وقف القتال بدأت مفاوضات السـلام بين الجانبين بناءً على طلب من السلطان "مراد الثاني".

أمير صغيرٌ يعتلي العرشَ

وقّع السلطان "مراد الثاني" معاهدة "سيجيدين (*Segedin*)" للسلام بتاريخ الثاني عشر من يونيو/حزيران (١٤٤٤م) في "أَدِرْنَه" مع كلٍّ من ملك المجر وطاغية الصرب، ثم استدعى ابنه الأمير "محمد الثاني" من ولاية "مَانِيسَا (*Manisa*)"، وعيّنه حاكمًا مكانه، وانتقل هو إلى الأناضول، ووقّع اتفاقيّةً مع حاكم "قَرَمَان (*Karaman*)" تقضي بضمان عدمِ اعتداء أحدهما على الآخر، وهكذا ضَمِنَ أمانَ حدودِ دولته الشرقية والغربية، ثمّ جمع رجال دولته في وادي "ميهليج (*Mihaliç*)" وقال لهم:

> "كنت سلطانكم حتى هذه اللحظة، وسيكون ابني هو السلطان عليكم اعتبارًا من الآن فصاعدًا، لأني منحته تاجي وعرشي ولقب السلطان، ولتعلموا أنه سيكون سلطان هذه الدولة من الآن فصاعدًا".

معلنًا بشكلٍ مفاجئٍ عن تنازله عن عرش السلطنة لابنه "محمد الثاني"، عقب ذلك آثر السلطان "مراد الثاني" اعتزالَ الدنيا برفقةِ الدراويش والزهّاد بولاية "بورصا".

لقد لعبَ الحزن -الذي خلّفه موت ابنه الأكبر "علاء الدين جَلَبِي" المفاجئ في نفس السلطان، والتعب الذي سيطر عليه بسبب الحروب الطويلة والمرهقة ضدّ الجيوش الصليبيّة في البلقان- دورًا مؤثّرًا في اتّخاذ "مراد الثاني" قرارًا بالتنازل عن العرش لابنه "محمد الثاني"، وربما رغب السلطان في التعريف بابنه "محمد" كحاكم شرعيٍّ للدولة، وحاول إكسابه الخبرة اللازمة لإدارة الدولة قبل أن يفارق الحياة.

وفيما يلي نسرُدُ كيف نقل لنا المؤرّخون العثمانيّون هذه الواقعة نادرةَ الحدوث بأن يتنازل سلطانٌ عن عرشه بإرادته لأحدِ أبنائه:

استطاع السلطان الوصول إلى اتفاقيّة سلام مع أعدائه بعد عامين مليئَين باللحظات الحزينة والمعارك الضارية والأخطار الكبرى، ونجحَ في ترسيخ دعائم الأمن والطمأنينة في أركان دولته، وأراد بعد ذلك أن يقضي بقيّةَ عمره في عبادةِ خالقه ﷻ بدلًا من بذل الجهد من أجل تنظيم أمورِ شعبه، ورغب في الاعتزال عن الدنيا وقضاء وقته في مذاكرة العلماء لا في الجلوس على العرش ولبسِ تاجِ الدولة وحكمها، كما مال قلبه للعمل من أجل آخرته إذ فضّل الفقر على بهرجة السلطنة، وصمتَ العزلة على بهاء المُلك، وأفصح عن فكرته تلك لوزيره "خليل باشا" بقوله:

"انظر يا وزيري العزيز!

لقد بذلت جهدًا كبيرًا على مرّ السنوات الماضية من أجل تنظيم شؤون الرعيّة، وتطهير كلّ رقعةٍ من بلاد الإسلام من الفتن، ومحاربة أعداء الدين والدولة، وخرجت كثيرًا في غزوات الجهاد من أجل رِفْعَةِ هذا الدين، وقضيت سنوات عمري في خدمة الدين، والآن تميل نفسي إلى اعتزال السلطنة، والانزواء من أجل التفرّغ لذكر الله وعبادته".

معركة "فارنا"

اعتـزل السـلطان "مراد الثاني" عرشَ السـلطنة بعـد أن تركَ ابنـه "الأميـر محمد" أمانةً في أيدي رجـال الدولة الموثوقين من أصحـاب الخبرة، ومـا إن تولّى "محمد الثانـي" مقاليد العرش، حتـى قام بإرسـال السـفراء إلى جميـع بلدان العالم الإسـلامي الكبـرى آنذاك، وفي مقدّمتها دولة المماليك في مصر، من أجل إبلاغهم باعتلائه عرش الدولة العثمانية.

وكان صعودُ فتًى يافـع يبلـغ من العمر اثني عشـر ربيعًا إلى عـرش الدولة العثمانية خلفًا لوالده صاحب الحنكة الكبيرة التي اكتسـبها بعدمـا قضـى معظمَ أيّـام حياته في ميادِيـن القتال، تُعدّ فرصةً لا تعوّض بالنسـبة لحـكّام أوروبّا، وقد حرّض حاكم بني قَرَمَـان "محمد بك" الدول الصليبيّة على الهجوم على الأراضي العثمانية، مؤكّدًا أن فرصةً كهذه لا تلوح في الأفق دائمًا بقوله:

"مـن السـهل أن يُهْـزَمَ هـذا السـلطان عديـمُ الخبـرة في الحرب التي ستُشَنُّ ضدّه".

نقض الإمبراطور البيزنطي والبابا معاهدةَ "سيجيدين" للسلام الموقَّعة حديثًا، وبدآ بالضغط على ملك المجر من أجل فسخِها لقناعتهما بأنه حان الوقت لطرد العثمانيين من البلقان، وبالرغم من إعرابهما عن استعدادهما لتقديمِ كلّ أنواع الدعم اللازم لملك المجر من أجل الأخذِ بثأر هزيمتِهم في معركة "نغْبُولُو (*Niğbolu*)" أمام العثمانيين عام (١٣٩٦م)، إلا أنّ الملك "لاديسلاس" رفض نقضَ عهده مع الدولة العثمانية، ما دفع نائب البابا في المجر الكاردينال "جوليان سيزاريني (*Jülyen Cezarini*)" للتدخُّل والزعم أن أيّةَ معاهدةٍ توقَّع مع المسلمين دون موافقة البابا هي في حكم العدم، معلنًا عن فسخ معاهدة "سيجيدين" قبل أن يجفّ الحبر الذي كُتبت به، وذلك بعدما وافق عليها ملك المجر وأقسمَ على تنفيذ بنودِها، وبناءً على ذلك أقسم المجلس الملكي بالآب والابن وروح القدس والسيدة مريم من أجل فسخ المعاهدة الموقَّعة مع العثمانيين وحصار مدينة "أورشوفا (*Orsova*)" مطلع شهر سبتمبر/أيلول ١٤٤٤م، وعندما أعلن حاكم إقليم أراد "يانوش هونيادي" معارضته لفسخ المعاهدة المُبْرَمَة مع الدولة العثمانية، أقنعوه بهذا الأمر بعدَ أن قطَعوا له وعدًا مؤكّدًا أن يُنصِّبوه ملكًا على دولة "بلغاريا" بعد انتزاعِها من أيدي العثمانيين، وطلب "هونيادي" من قادة التحالف ضدّ الدولة العثمانية التمهّل وتأخيرَ إعلان الحرب، ذلك لأن العثمانيّين سيسلّمون القلاع الواقعةَ على حدود صربيا تنفيذًا لبنود معاهدة "سيجيدين"، ولم يكن العثمانيّون على علمٍ بهذه المؤامرات التي تُحاك ضدّهم، فوَفوا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم، وأخلوا القلاع الواقعة على حدود دولتهم الشمالية عندما حلّ وقت تسليمها.

سيطرت حالةٌ من الترقّب والتأهّب على أوروبّا فورَ إعلان الحرب على الدولة العثمانيّة، وقد ضمّ هذا التحالُفُ الأوروبّيّ الصليبيّ إمارات "بوهيميا" و"أَفْلَاق" و"كرواتيا" و"بولندا" و"ألمانيا" و"بابا الفاتيكان" و"حكّام البندقية" و"مملكة المجر"، ولما وصل هذا النبأ إلى "أَدِرْنَه" عاصمة الدولة العثمانيّة، ساد التوتُّر والتخبُّطُ قادةَ الدولة.

عبر الجيشُ الصليبي بقيادة ملك المجر "لاديسلاس" نهر الدانوب في الفترة ما بين الثامن عشر إلى الثاني والعشرين من سبتمبر/أيلول ١٤٤٤م، ووصل مدينة "فارنا" مرورًا بشمالي "بلغاريا"، ومن ناحيةٍ أخرى؛ سيطرَ أسطولُ البندقية القويّ على مضيق الدردنيل، ومنعَ نقلَ القوّات العثمانيّة من الأناضول إلى البلقان، فتحوّلَ القلقُ الذي سيطر على القيادة العثمانية في "أَدِرْنَه" إلى خوفٍ وهلَعٍ، وتيقّن حينها رجالُ الدولة العثمانية أنه لم يعُدْ أمامهم خيار سوى رجوع السلطان السابق "مراد الثاني" واعتلائه عرش السلطنة مرّةً أخرى، فأرسلوا إليه رسولًا يدعوه إلى "أَدِرْنَه".

وتحرّك مراد الثاني من الأناضول على رأسِ جيشٍ أعدّه لمواجهة القوّات الصليبيّة، وتوجّه صوب مضيق البوسفور لعِلْمِه بسيطرةِ أسطول البندقيّة على مضيق الدردنيل، واستطاع دفع السفن البيزنطية الراسية به بوابل من القذائف المدفعيّة، ثمّ عبر بجنوده إلى الطرف الأوروبّي من القسطنطينيّة.

وعندما وصلَ الجيش الصليبيّ مدينة "فارنا" بمشاركة أمير "أَفْلَاق" "فلاد دراكولا"، وصل السلطان مراد الثاني "أَدِرْنَه" بجيش قوامه أربعون ألف جنديّ وصُعق القادة الصليبيّون عندما علِموا ذلك، مما أدّى إلى انهيار معنويّات أفراد وعناصر الجيش الصليبيّ؛ ذلك لأنهم لم يكونوا

يتوقّعون أن تعبُرَ القوّات العثمانيّة إلى البلقان لعلمهم بقطع الطريق أمامهم عبر السيطرة على مضيقي البوسفور والدردنيل، فها هو السلطان "مراد الثاني" القائد الشجاع المجرّب الذي حاربوه سنين عددًا يواجههم مرّةً أخرى، وبدأ الخوف يدبُّ في نفوس قادة الجيوش الصليبيّة، وأدركوا أن مهمّتهم لن تكون سهلةً على الإطلاق كما كانوا يتخيّلون.

انتابت حالةٌ من الفرح والسرور أركان الدولة والشعب في "أَدِرْنَه" عندما وصلَها السلطان السابق "مراد الثاني"، وأمر السلطان "محمد الثاني" باستدعاء وزيره "خليل" وقال له:

"هل لك أن تطلب من والدي أن يبقى هنا ويحمي "أَدِرْنَه" من هجوم كفّار القسطنطينية؟ وأما أنا فسأخرج للجهاد ضدّ الصليبيّين".

فأجابه الوزير قائلًا:

"يا سيدي! لا أستطيع نقل هذا الكلام إلى السلطان، نحمد الله أنه جاء "أَدِرْنَه"، فهو المتصرّف من الآن فصاعدًا، فما يأمر به سنطيع، علاوةً على أن هذا العدوّ ليس هيّنًا يا سيدي الأمير، وأنت لا تزال حديث العهد بهذه الحروب".

ولم يستطِع السلطان الشابّ إقناعَ وزيره "خليل باشا"، فخرج لاستقبال والده، فلما التقى به قبّل يده، وكرّر رغبته في الخروج بنفسه إلى هذه الغزوة بقوله:

"يا سلطاني! أرجوك أن تصطحِبني معك في هذه الغزوة، فأنا أرغبُ في الخروج للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الدين أمام هؤلاء الكفار".

فردّ عليه والده السلطان:

''لا يـا بني، لا تقل هذا الـكلام، نفّذْ ما أقوله لك، هذا العدوّ قـويٌّ للغايـة، وأنـت من سـيحمي هـذا العرش فـي مواجهة كفار القسطنطينية عندما أَخْرُجُ لمواجهة الأعداء''.

وعيّن السلطان "مراد الثاني" ابنه "محمد" كوكيل للسلطان في "أَدِرْنَه"، وخـرج لمواجَهـة الجيـوش الصليبيّة بعدمـا تمّ توديعه مـن عاصمة دولته بالنصائح وأدعية الخير الوفيرة.

غـادر السـلطان مراد الثاني "أَدِرْنَه" مسـرعًا حتى وصـل "فارنا"، وهيّأ جيشَـه لمواجهة جيش العدوّ، ووفق الخطّة التي وضعها لجيشـه، كان هو من سـيقود جنود الإنكشـارية في المنتصَف، وأسـندَ قيادة جنود الروملي فـي الميمنـة إلـى "طُورْخَـانْ بَـك (*Turhan Bey*)"، وجنـود الأناضول في الميسـرة إلى "شـهاب الدين باشـا"، وأمـا "داود بك" فقد أُلحـق بالجناح الأيسر للجيش بقيادةِ مجموعةٍ من المتطوّعين بغية دعم هذا الجناح، وقد عقد السـلطان "مراد الثاني" اجتماعًا في خيمته ضمّ أبرزَ قادته وباشـاواته وأمرائه، وخاطبهم قائلًا:

''لقـد رافقتمونـي في كلِّ غـزوةٍ غزوتُها، فأريـد أن أراكم في هذه الغزوة أيضًا تُجندلون هؤلاء الكفار بسيوفكم لنصرة الإسلام، تعلمون ما هي مرتبة الجهاد في سبيل الله، وكيفَ أنَّ منزلةَ الشهادة عظيمةٌ وجليلة، وما دمنا قد أتينا هذه الدنيا؛ فلا بدّ أن نموت، وإن كان الأمـر كذلـك، فلننتهِز هذه الفرصة السـانحة ونؤدّي الواجب المفروض علينا بالخروج في الجهاد وقتال الأعداء، من سيصاب منـا فهو غازٍ منتصر، ومن سـيُقتل فهو شـهيد عند ربـه يرزقه بغير

حساب، ولنستغلّ هذه الفرصة كي نصِلَ إلى غايتنا في الدنيا والآخرة".

فأجابه جنود الإنكشارية والباشاوات والأمراء بقولهم:

"أرح قلبك يا سلطاننا، فسنقاتل الكفار نصرةً لديننا وطاعةً لك، وسنحارب أعداء الدين وسنضحّي بأرواحنا في سبيل الله ومن أجل النصر، حفِظَكَ الله يا سلطاننا ما دامت السموات والأرض".

وقد قضى السلطان "مراد الثاني" ليلته تلك من بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر وهو يصلّي ويتضرّع إلى الله كي ينصُرَه على أعدائه، وفي الصباح انطلقت القوّات العثمانيّة للهجوم على الجيوش الصليبيّة.

لقد صادف يوم المعركة عيد القدّيس "مارتين التوروزي"، وهو ما لعب دورًا مؤثّرًا في مضاعفة الجُرأةِ والأملِ لدى الجيشِ الصليبيّ، لا سيّما وأن عدده كان يتفوّق على نظيره العثماني، وخاطب ملك المجر "لاديسلاس" قادة جيشه بقوله:

"أريد أن أرى شجاعتكم في ميدان المعركة، وإياكم أن تبادروا إلى السلب والنهب إذا ما هرب جيش العدوّ، لا ترجعوا عن تتبُّعهم حتى تقضوا عليهم عن بكرة أبيهم، فكما يقولُ المثل "يجب أن تقتلَ النحلة أولًا ثم تأكل عسلها" لا تبخلوا ببذل الجهد من أجل النصر، فلو انتصرنا على الأتراك، لن تقفَ قوّةٌ أخرى أمامنا".

وكان تعداد الجيوش الصليبيّة حوالي مائة ألف مقاتل، وأما الجيش العثماني فكان قوامه في حدود الستين ألف جندي.

وبدأتِ الحربُ بين الجيشين بشكلٍ عنيفٍ للغاية بهجوم نفذه "يانوش هونيادي" على الجناح الأيسر من الجيش العثماني، و"فلاد دراكولا" على رأس قـوّاتٍ رومانيـة علـى الجناح الأيمن، وفي الوقـت الذي حدثت فيه تصدُّعـات فـي صفـوفِ قوّات الأناضـول التي أظهرت مقاومةً باسـلةً في مواجهـة هجمات العـدوّ؛ بادرت قـوّات الروملي بالانسـحاب من أرض المعركـة واستشـهد أميـر أمراء الأناضول "قاراجا باشـا" هـو والعديد من حـكّام الإمـارات، وكان السـلطان "مراد الثاني" يدير الحـرب من دون أن يتحـرّك مـن مكانه تحيط بـه قوات "قَابِـي قُولُـو (*Kapıkulu*)"[٣] الخاصة، وذلك بالرغم من أن علامات الهزيمة بدأت تلوح في الأفق، وأدرك حينها القائد العام للجيوش الصليبية "لاديسـلادس" أن سـير المعركة يصبُّ في مصلحتهم، فشنَّ هجومًا بقواته البولندية على مركز الجيش العثماني، غير أن القوات العثمانية تراجعتْ بشكلٍ مفاجئٍ، ثم عادت إلى مكانها عبر مناورةٍ احترافيّـةٍ، وأحاطت بالقائد المجريّ من كلّ اتجاهٍ، فأصابه جنديٌّ عثمانيٌّ بضربـةٍ مـن بلطتهِ الجبّارة فـأرداه قتيلًا وهو على متـن حصانه، وقد قطـعَ جنديّ الإنكشـارية الذي قتله ويُدعى "قوجا خضر"، رأسَ "لاديسلادس"، وعلّقها على رمحٍ، وعلّق بجوارِها نسخةً من المعاهدة التي نقضها بالرغم مـن قطعه عهدًا على نفسـه بتنفيذ بنودها، وفطـن "يانوش هونيادي" حينئذٍ أن جيشـه لن يسـتطيـعَ تحقيقَ النصر أمام القوّات العثمانيّة، فلم يجدْ حيلةً إلا في الهرب بقوّاته المجريّة والبولندية الأَفْلَاقية (الرومانية)، وبقيت جثتا

(٣) لفظ مركب، "قابي" بمعنى الباب و"قولو" بمعنى عَبد، أي عبيد الباب ويطلق على مجموع جنود الدولة العثمانية الذين يشكلون فرق المشاة والخيالة العاملين بأجر، وكانوا يسمون "دركاه عالي قوللري (*Dergah-ı Âli Kulları*)". (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ١٧٢).

الملك "لاديسلادس" والكاردينال "سيزاريني" في أرض المعركة، وخسِرَ العثمانيّون في هذه المعركة عشرةَ آلاف جنديٍّ، فيما تجاوزت خسائرُ الصليبيّين أكثرَ من ذلك بكثير.

وكما جرت العادة لدى الأتراك، أجرى السلطان "مراد الثاني" زيارة تفقّديّة إلى ميدان المعركة، وخلالها قال لأحد قادته ويُدعى "عزب بك":

"يا لها من مسألة محيّرة، ليس بين هؤلاء الصليبيّين أيّ كبيرٍ في السن، فكلهم في ريعان الشباب".

فردّ "عزب بك" قائلًا:

"يا سيدي! لو كان بينهم كبيرٌ ذو لحيةٍ بيضاء وخبرةٍ وحنكةٍ لما كانوا أقدموا على هذه المحاولة المجنونة، فلقد قادهم غرورُ الشباب إلى تدمير أنفسهم".

وبعد انتهاء المعركة والنصر الذي أحرزه العثمانيون، أُرْسِلَ نبأ البشرى إلى عاصمة الدولة في "أَدِرْنَه"، وبُعثت رسائل الفتح إلى حكّام الأقطار الإسلاميّة، وأُرسلت رسالةٌ للتبشير بهذا الفتح إلى سلطان الدولة المملوكية في مصر، إضافةً إلى هدية مكوّنةٍ من عشرين فارسًا مجريًّا مدرّعًا من منبتِ شعره إلى أخمص قدميه، أُسروا خلال الحرب، وقد قرأ المبعوث العثماني "عماد الدين عزب بك" رسالة النصر على السلطان المملوكي في القاهرة، فنظر السلطان إلى الفرسان المجريّين وقال:

"كان الله في عونكم يا آل عثمان".

ودعا للسلطان مراد بالخير، وأمر السلطان المملوكي بذكر اسم السلطان "مراد الثاني" في خطبةِ الجمعة بعد اسم الخليفة، والدعاء له بالخير والبركة.

وبهذا النصر الذي حقّقته الدولة العثمانية في "فارنا"، تعرّضت مملكة المجر وبولندا المتحدة -التي كانت تمتد من بحر البلطيق شمالًا إلى البحر الأدرياتيكي جنوبًا- لضربةٍ كادت تقضي عليهما، ولم يعد هناك أيّ قوّةٍ بإمكانها تهديد الوجود الإسلامي في شبه جزيرة البلقان كما تبدّدت آمال الدولة البيزنطيّة في الحصول على دعمٍ من دُول أوروبا.

وعندما وصل مراد الثاني "أَدِرْنَه" قادمًا من فارنا، لم يذهب إلى الأناضول مباشرةً، وفضّل البقاء إلى جانب ابنه في عاصمة دولتِه لفترةٍ من الوقت حتى يزول الخطر بالكامل، وبعد ذلك عاد مجدّدًا إلى "مَانِيسَا" رافضًا مطالبات الوزير "خليل باشا" وبعض رجال الدولة بالبقاءِ والعودةِ إلى تولّي مهام السلطنة.

وما إن غادر مراد الثاني "أَدِرْنَه" إلى "مَانِيسَا"، حتى بدأت المنافسة بين وزراء السلطان الشابّ "شهاب الدين باشا" و"زَاغَانُوسْ باشا" و"خليل باشا" تظهر في الأفق بشكلٍ جليّ، وبينما عمد فريق السلطان "محمد الثاني" إلى الاقتراح على السلطان الشابّ باتّباع سياسة جهاديّة فعّالةٍ تضعُ الغزوات في المقام الأوّل، كان الفريق المقابل يميل إلى التصرّف بحَيطةٍ وحذَرٍ وإلى ممارسةِ سياسةٍ خارجيّةٍ أكثر سلميّة، وكان فريقُ الصقور (دعاة الحرب) وفريقُ الحمائم (دعاة السلم) في العاصمة العثمانيّة يتنافس كلٌّ منهما على استمالةِ السلطان الشابّ إلى صفّه، وكان السلطان محمد في صفّ الصقور ويتحرّك وفقًا لتوجيهاتهم.

وقد نشب حريقٌ مروّعٌ في "أَدِرْنَه" عام (١٤٤٦م)، فتضرّر سكان المدينة كثيرًا جرّاءه، كما أعلن جنود الإنكشارية تمرُّدهم وأنهم سيولّون الأمير "أُورْخَانْ" الموجود لدى الدولة البيزنطية مقاليدَ الدولة العثمانية إن

لم يعتلِ السلطان "مراد الثاني" العرشَ، إضافةً إلى زيادة التوتُّر على حدودِ الدولـة، وهـذا ما دفـع "خليل باشـا" وفريقه للإصرار في دعوة السـلطان السـابق للعـودة إلى العرش، وهو ما اسـتجاب له "مـراد الثاني" الذي عاد إلى "أَدِرْنَه"، وجلس على عرشِ دولتهِ مرَّةً ثانيةً، ومن ثمَّ أعلن ابنه "محمد الثاني" وليًّا للعهد، وعيّنه أميرًا على ولاية "مَانِيسَا"، وقد كسَبتِ "الحمائمُ" المنافسة ضمن هذه الحقبة من الزمان.

لقد اكتسب الأمير خبرةً لا يستهان بها في العديد من المجالات خلال الفتـرة التي قضاهـا على عرش الدولة فيما بين عامـي (١٤٤٤-١٤٤٦م)، وتعـرّف إلـى الشـعب ونظـام الدولـة والجيشِ عـن كَثَـبٍ، وحصل على معلوماتٍ ذات صِلةٍ بالسياسة الخارجيّة، وتابـع التوازنات الحسّاسة داخل الدولـة بنفسـه عـن قُرْبٍ، ولقد أثّـرت هذه الفترة الأولى مـن تولّيه عرش السـلطنة في شـخصيّتِهِ أيّما تأثير، ونشـأت لديه في هذه الفترة الخِبرةُ في كيفيّةِ كَسْـرِ سـلطةِ الوزراء القدامى من المتصرفين بحذرٍ أكثر من اللازم، وترويـضِ طبقـةِ الإنكشـارية، ونهـج سياسـة جهاديّـة حيويّة تقـودُه لفتح القسطنطينية.

ولا ريـب أن الفوائـد والخبـرةَ التـي تلقّاهمـا الأميـرُ خـلال العامين اللذَين اعتلى فيهما عرش السـلطنة العثمانية لعبتا دورًا محوريًّا في تحديدِ السياسـات التي سـيطبّقُها خلالَ فترةِ تولّيه عرش الدولة العثمانيّة لثلاثين عامًا ابتداءً من عام (١٤٥١م)، وانشغل "الأمير ولي العهد" خلال السنوات الخمـس التـي قضاها حاكمًا على "إمارة مَانِيسَـا" بتنمية معارفه السياسـيّة والثقافيّة بشكلٍ أكبر.

وبدأ السلطان "مراد الثاني"، العائد حديثًا إلى عرشه مرّةً ثانيةً، بالتركيز على قضيّة شبه جزيرة "بيلوبونيز"، وكان "قسطنطين باليولوج" -الذي سيجلس لاحقًا على عرش الدولة البيزنطية- قد احتلّ المناطق الخاضعة للعثمانيين مستغلًّا انشغالَهم بحرب "فارنا"، كما أنه رفض طلب الدولة العثمانية بإخلاء المناطق التي احتلّها، غير أن دخول مغاوير القوّات العثمانية الجزيرة وجعْلَهم عاليها سافلها أجبر "قسطنطين" على الاعتراف بتبعيّة الجزيرة للدولة العثمانيّة مجدّدًا، ثم خرج الجيش العثماني في غزوةٍ لِردعِ حاكِم ألبانيا "إسكندر بك" لتمرُّده، وقد شارك الأمير الشاب محمد في هذه الحملة العسكريّة في صيف عام (١٤٤٨م)، لكن قادةَ الجيشِ العثمانيّ أنهوا هذه الحملةَ بعدما وصلَ عددٌ من الرسل تباعًا إلى قيادة الجيشِ؛ وتواترت الأنباء عن مقدم "يانوش هونيادي" على رأس جيش عظيم بغية الانتقام والثأر لهزيمة "فارنا".

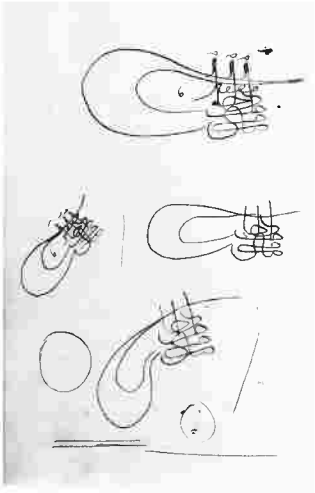

السلطان الفاتح ينقش طغراءه الخاص في فترة إمارته

جندي إنكشاري

حرب "كوسوفو" الثانية

جلس "لاديسلاس السادس" الابن الأصغر لإمبراطور ألمانيا "ألبيرت" على عرش مملكةِ المجَرِ عقِبَ مقتل ملكها السابق "لاديسلاس" في حرب "فارنا"، وعُيّن "يانوش هونيادي" نائبًا لهذا "الملك الصبيّ"، ليتحرّك كيفما يحلو له، ويخطّط ليفوز بقلبِ القائد الذي طردَ العثمانيّين من أوروبا، ومن ثم يجلس على عرش المجر مستغلًّا السمعة التي سيحقّقها بفضل هذا الإنجاز، ولم ينتظر كثيرًا من أجل تنفيذ مخطّطاته تلك، فدعا البابا ودول أوروبا لتجهيز جيش كبير، وبالفعل استطاع أن يحشُدَ جيشًا تخطّى تعدادُه التسعين ألف جنديّ من المجريّين والإيطاليّين والألمان والبولنديّين والتشيكيّين والسلافيّين، ونظّمه بشكلٍ دقيقٍ للغاية، ثم دخل أراضي العثمانيين واحتلَّ "صربيا".

وتحرك السلطان "مراد الثاني" مسرعًا من "ألبانيا" إلى "صوفيا" بناءً على هذه المستجدّات العاجلة، وأعدّ جيشَه للقتال، ومن ثمّ تتبّعَ قوّات العدوّ ووصلَ إلى وادي "كوسوفو"، وكان قِوام الجيشين متقاربًا، وقد عرض السلطان على عدوّه مبادرةً للسلام قبل اندلاع الحرب -وفق ما تمليه عليه تقاليد الإسلام-

إلا أن العـدوَّ رفـضَ هذا العرض، فبدأ الجيشـان بالقتال، وكان السـلطان "مـراد الثانـي" وابنـه "الأمير محمد" يتمركـزان في منتصـفِ الجيش على رأس القـوّات الخاصّة، وفي الميمنة قوّات الروملي، وفي الميسـرة قوّات الأناضـول، وأمّا قـوّات المغاوير صاحبةُ الخبرةِ في الحـروبِ فقد كُلِّفت بالهجومِ في موقِـع المقدّمة، وحُصّنت مؤخّرةُ الجيش بعربات الحمولات والذخيرة.

اسـتمرّت الحربُ التي وقعت بين الجيش العثمانيّ ونظيرِه الأوروبّي الصليبـيّ فـي وادي "كوسـوفو" ثلاثةَ أيام في الفترة ما بين السـابـع عشـر والعشـرين من أكتوبر/تشرين الأوّل في سـنة (١٤٤٨م)، واستطاعَ الأتراكُ فـي هذه المعركة أن يُطبِّقوا خطَّـةَ "فـخّ الذئب"[٤] القتاليّة؛ بحيث تراجعت للخلف قوّات الميمنة والميسـرة في البداية، وما إن رأى الجيش الصليبيّ هـذه الوضعيّـة حتـى ظـنّ أن القـوّات العثمانيّة تنهـار وتتشـبّثُ بالهرب، فهجـم على مركـز الجيش العثماني من أجل تحقيـق النصر الأكيد، وكان هـذا الهجـوم ما يريده وينتظره الجيش العثمانـي؛ إذ بادرت قوّات الميمنة والميسـرة التـي تراجعـت إلى الخلـف بالعودةِ بشـكلٍ مفاجِـئٍ، ومن ثمّ أحاطـت بقوّات الجيش الصليبيّ من الخلـف وأغلقت الدائرة عليه، وهو ما جعل قوّات العدوّ بين شـقّي الرحى لا تقدر حتى على الهرب، وبدأت

(٤) خطة فخ الذئب: حيث إنها استراتيجية عسكرية تهدف إلى القضاء على العدوّ عبر تطويقه من كل جانب، وقد كانت هذه الخطة شديدة التأثير في المعركة، وتتم على مرحلتين: ١- التراجع الكاذب، ٢- الخداع والكمن.
فكان الجيش ينفصل في لحظة الحرب إلى ثلاثة أفرع: الوسط والميمنة والميسرة؛ فتهاجم قوات الوسط العدوّ، وتتراجع إلى الوراء وكأنها تفرّ من الأرض المعركة، وعلى حين تقوم بهذا تواصل الحرب بإطلاق السهام وهي على ظهر الخيل، وبهذه الطريقة كان العدوّ الذي يتبع الجنود المنسحبين من الخلف ينسحب إلى المكان المنصوب فيه الكمين بين ميسرة الجيش وميمنته، ويتمّ القضاء عليه حيث يشدّد عليه الخناق.
وكان خالد بن الوليد ﷺ من أفضل القادة الذين طبّقوا هذه الاستراتيجية الحربية في معركة الولجة عام (٦٣٣م)، وكذلك "آلب أرسلان" في معركة "ملاذكرد (*Malazgirt*)"، وأيضا السلطان "سليمان القانوني" في معركة "مُوهَاچ (*Mohaç*)".

القوّات العثمانيّة الضغطَ على العدوّ من كلّ جانب وكأنها مكبس حديدي، ممّا جعلها تصِلُ إلى مرادِها وتُدمّرُ قوّات العدوّ بشكلٍ كبير، وسقط سبعة عشر ألف جنديّ من قوّات العدوّ، وتمكّن القائد العام للجيش الصليبي "يانوش هونيادي" من النجاة بنفسِهِ من هذه المعركة بصعوبةٍ بالغةٍ وذلك بفضلِ حماية العربات المجهّزة بالأسلحة النارية.

وأدركَ الأوروبّيّون بعد هذه الهزيمة في حرب "كوسوفو" الثانية أنهم لن يستطيعوا طردَ العثمانيّين من البلقان، وأن الثقافة الإسلامية باقيةٌ في منطقة الروملي، هذا إضافةً إلى استيقان البيزنطيّين بأنهم لن يستطيعوا الحصول على دعم من أوروبا في مواجهة الدولة العثمانية، ومن الآن فلاحقًا سيتحوّلُ الصليبيّون إلى مرحلةٍ جديدةٍ وهي مرحلةُ الدفاع، فيما سيبادر العثمانيّون ويتحوّلون إلى مرحلةِ الهجوم، أضف إلى ذلك أن الدولة العثمانية تمكّنت من تأمين حدودها الغربية، الأمر الذي كان يحمل أهمّيّة قصوى من أجل فتح القسطنطينية.

خرج السلطان "مراد الثاني" برفقة ابنه "الأمير محمد" عام (١٤٥٠م) في غزوةٍ إلى ألبانيا لحلّ النزاع القائم بها بعدما اضطرّ لمغادرتها قبل إكمال مهمّته، غير أن السلطان عاد أدراجَه من دون أن يستطيعَ تحقيقَ النتيجة المرجوّة بسبب الهجمات العنيفة التي نفذَتها قوّات حاكم ألبانيا "إسكندر بك"، وانتشارِ شائعاتٍ تُفيد بأن "يانوش هونيادي" تحرّك للهجوم على الأراضي العثمانية، وحلول فصل الشتاء وما تبعه من أحوالٍ جوّيةٍ سيّئة.

وشهد ذلك الشتاء زواج "الأمير محمد" بـ"ستّي مُكْرِمَة خاتون" ابنة "ذو القادر أوغلو سليمان بك" وسط مراسم زفافية فخمة أقيمت بالعاصمة "أَدِرْنَه" ودعي لحضورها جميع الحكّام والأمراء الذين تربطهم علاقة

صداقةٍ بالدولة العثمانية، وبعد حفل الزفاف، عاد "الأمير محمد" مع زوجته إلى مقرّ إمارته في "مَانِيسَا".

توفّي السلطان "مراد الثاني" بعدما أصيب بالشلل بتاريخ الثاني من فبراير/شباط عام (١٤٥١م) عن عمرٍ ناهز السابعة والأربعين، ودُفن في ضريحٍ مكشوف السقف في فناء جامع "مرادية" في بورصا وذلك تنفيذًا لوصيّته، وأطلق شعبه عليه لقبَي "مراد بك العظيم" و"مراد العظيم الغازي" احترامًا له وحبًّا لأخلاقه، وقد اشتهر السلطان ﷺ بصِفات حُسْنِ الخلق والكرم والعدل والرحمة والوفاء بالعهد والشجاعة وحسن التدبير والقيادة والزعامة؛ حيث كان رجل دولة من الطراز الأوّل والرفيع، تولّى السلطانُ عرش الدولة العثمانية وهو شاب يافع يبلغ من العمر سبعَة عشَرَ ربيعًا، وسارت حياته منذ ذلك الحين إلى أن وافته المنيّة بين الغزوات والفتوحات، ويُروى عن السلطان "مراد الثاني" أنه كان محبًّا لمجالس العلم، وأنه كان يحمي العلماء ويقضي يومين من أيام أسبوعه بصحبة العلماء والفقهاء في حلقاتهم، وأنه كان يرسل ثلاثةَ آلافٍ وخمسمائة فلوريـن سنويًّا إلى القدس الشريفِ وخليلِ الرحمن ومكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، كما أمر بإنشاء أوقافٍ خيريّة لرعاية الفقراء، وبالرغم من أنه قضى أغلب حياته في الغزوات والفتوحات الخارجية، إلا أنه لم يهمل تعمير دولته، فأولى اهتمامًا خاصًّا بأعمال الإنشاء والتعمير، حتى اشتهر بين الشعب بلقب "أبي الخيرات".

مقابر تركية بمدينة "صوفيا"

السلطان الفاتح على العرش من جديد

أرسل الصدر الأعظم "خليل باشا" خطابًا إلى "الأمير محمد" لإبلاغه بوفاة والده وضرورة العودة إلى العاصمة، فتحرّك الأمير مسرعًا إلى "أَدِرْنَه" عبر شبه جزيرة "جَلِيبُولُو (*Gelibolu*)"، لتُقام مراسم مبايعتِه سلطانًا على عرش الدولة يوم الخميس الموافق للثامنِ عشر فبراير/شباط من عام (١٤٥١م)، ليكون بذلك سابع سلطانٍ في سلسلة سلاطين الدولة العثمانية.

كان قد أتمّ عامه التاسع عشر قبل أيام، ويصِفُ المؤرِّخ البيزنطيّ الأمير "دوكاس" مراسمَ جلوسه على العرش في قصر "أَدِرْنَه" على النحو التالي:

"اصطفَّ جميعُ السادة وكبار الدولة أمامه، وكان وزيرا والده "خليل باشا" و"إسحاق باشا" يقفان على الجانب بعيدًا عنه قليلًا، فيما كان وزيراه "شهاب الدين باشا" و"إبراهيم باشا" يقفان بجواره مباشرةً طبقًا للعادات المتّبعة، وقد سأل "محمد" الوزير "شاهين" حينها بقوله:

''لماذا يقف وزيرا والدِي بعيدًا؟ استدعهما، واطلب من خليل باشا أن يجلس في مكانٍ يتناسب مع مكانته، وأما إسحاق باشا فليذهب إلى دفن جثمان والدي في بورصا برفقة

سائر وجهاء الأناضول الآخرين، ومن الآن فصاعدًا سيكون هو من يتولّى شؤون الأناضول".

وما إن سمع الوزيران السابق ذكرهما هذه الكلمات، هرولا ليقفا أمام السلطان الجديد ويقبّلا يده، وبقي خليل كوزير، فيما نقل إسحاقُ جثمانَ السلطان مراد ودفنه في الضريح الذي بناه في "بُورْصَا".

عيّن السلطان الجديد "إسحاق باشا" أميرًا لأمراء الأناضول، وأسند منصبه السابق إلى "شهاب الدين باشا"، وقد حفِظ على "جَانْدَرْلِي خليل باشا" منصِبَه كوزيرٍ أعظم، بالرغم من تدهوُرِ علاقتِه معه بسبب الأحداث السابقة عند اعتلائه عرش السلطنة ثمّ إعادته وليًّا للعهد وحاكمًا لولاية "مَانِيسَا"، ومع ذلك فإنّ السلطان الشاب كان يرغب في الاستفادة من خبرة "خليل باشا"، الذي كان له تأثير كبير على الإنكشارية في مجال السياسة الخارجية، فلقد كان ذا خبرةٍ ومهارات واسعةٍ في هذا المضمار، غير أنه جعل الصدر الأعظم وحيدًا في العاصمة بواسطة التعيينات الجديدة التي قام بها من جانبٍ آخر، كما عزل "عيسى بك بن أُوزْجُورْ" أمير أمراء الأناضول، الذي كان مكلفًا بمتابعته خلال السنوات التي قضاها في "مَانِيسَا"، وعين مكانه "إسحاق باشا"، وعين أيضًا "شهاب الدين باشا" و"صاروجا باشا" و"زَاغَانُوسْ باشا" و"إبراهيم باشا" في منصب وزارة الديوان، وبالتالي شكَّل الكادر الوزاريّ الخاصّ به.

وبدت وضعيّة السلطان الجديد هذه المرّة مختلفةً تمامًا عن تلك الوضعيّة التي كان عليها عندما تولّى عرش السلطنة للمرّة الأولى قبل عدّة سنوات؛ إذ كان الوضع السياسي المحيط بالدولة العثمانية قد تحسّن بعد

النصر في حرب "كوسوفو الثانية"، وقويت الهيمنة العثمانية في البلقان، وفقد الأوروبيون الشجاعة الكافيةَ لتنظيم حملاتٍ صليبيّة جديدةٍ على الأراضي العثمانية.

وما إن سمع حكام أوروبا بجلوس السلطان "محمد الثاني" على عرش الدولة العثمانية، أرسلوا سفراءهم لتقديم التهاني للسلطان الجديد، وعرضِ عدد من الاتّفاقيّات والمعاهدات عليه.

وصل مدينة "أَدِرْنَه" سفراء الإمبراطورية البيزنطية، وإمبراطورية الروم في طرابزون وملك الصرب وملك المجر وممثلون عن طاغية "مورا" وحكومات أَفْلَاقْ وراجوزا وجنوة وجزيرتي ميديللي وصاقيز (خيوس) وفرسان رودس ومستعمرة "جلطة" في "جنوة".

وكان السلطان الشابُّ لديه تصوّراتٌ وأفكارٌ مستقبليّة، فسعى من أجل تحقيقها عن طريق الترحيب بالعروض المعقولة التي عُرضت عليه لرغبته في انتهاج سياسة سلميّةٍ مع دول الجوار، ذلك لأن هدفه الحقيقي هو فتح القسطنطينية، وكان "قسطنطين الحادي عشر باليولوج" يجلس على عرش الدولة البيزنطية منذ عام (١٤٤٩م)، وقد حاصرتها الأراضي الخاضعة للعثمانيين الذين يتوسّعون باستمرارٍ منذ قرنٍ ونصف من كلّ جانب، ولم يتبقَّ من أراضيها سوى القسطنطينية وبعض القلاع الواقعة على سواحل بحر مرمرة.

خطّط السلطان "محمد الثاني" لتأمين حدودِ دولتِهِ قبل كلّ شيءٍ، وجدّدَ في هذا الإطار معاهدةَ السلام القائمة مع البندقية، ووقّع اتفاقيّةً

جديدةً مع المجر تمتدُّ لثلاث سنوات، وتودّد السلطان لسفراء الصرب، وتنازلَ لهم عن بعض القِلاع الحدوديّة، كما جدّد الاتفاقيّات القائمة مع الدولة البيزنطية، ومنحها قلعة "جُورْلُو" في مقابل عدم التخلّي عن الأمير "أُورْخَانْ" حفيد "يِلْدِرْيمْ بيَازِيدْ"، وكان من بين التعهّدات التي قطعها السلطان على نفسه تزويد البيزنطيّين بمبلغ ثلاثمائة ألف درهم سنويًّا من أجل تلبية احتياجات الأمير "أُورْخَانْ".

إلا أن الأوروبيين أخطؤوا تقدير سياسة السلام التي اتّبعها السلطان "محمد الثاني" بعد جلوسه على عرش الدولة العثمانية، وأفضى عودة والده إلى عرش الدولة عقب وقوع العديد من الأحداث الصعبة خلال فترة سلطنته الأولى؛ إلى تفكير الأوروبيين وظنّهم أن هذا السلطان ذو شخصيّةٍ عاجزةٍ وغير محنّكةٍ، ولهذا السبب سيطرت حالةٌ من الفرح العارم على كافّة أرجاء أوروبا عقب وفاة السلطان "مراد الثاني" وتولّي ابنه "محمد الثاني" العرش خلفًا له، وتوقّع ملوك أوروبا أن الدولة العثمانية ستنقسم وتتفرّق بين يدي هذا الفتى اليافع.

لقد اقترح الإيطالي "فرانسيسكو فيليلفو (*Francisco Filelfo*)"، الذي قضى سبع سنوات من عمره في بلاط الدولة البيزنطية، على حكام أوروبا التحرّك دفعةً واحدةً في الحال من أجل استغلال هذه الفرصة السانحة، فأرسل خطابًا إلى ملك فرنسا "شارل السابع" قال فيه:

> "إن السلطان العثماني الحالي غير كفءٍ وجاهلٌ وغيرُ قادرٍ على الصمود أمامنا، ولا يمتلك خبرةَ خَوضِ الحروب، كما أن الأتراك في الوقت الحالي لن يستطيعوا حشدَ أكثر من ستين ألف

جنـدي، وبالتالـي لن يتمكّنـوا من الوقـوف أمام جيوشـنا، ولهذا بإمكان جيوشـنا التقدّم بسـهولة تامّةٍ حتى القسـطنطينية، والاتحاد مـع الجيش البيزنطي، وطرد العثمانيّين من البلقان إلى غير رجعة، حتـى إن قواتنا تسـتطيـع العبور إلى آسـيا، ومحـوَ الوجود التركيّ مـن علـى الخريطة، وعدم السـماح لهم بالاتّحـاد أو التجمُّـع مرّةً أخرى".

وختم خطابه بعبارة:

"إذا كان الأمر كذلك، فهلمّ إلى الأمام يا ملك شارل!"